



ولدت في مدينة دمشق غريباً، لأبوين غربيين تقاضفهما نكبة فلسطين ليجدا نفسيهما مع خمسة أطفال في مدينة دمشق. لم يتعلم أبي درس النكبة ويتوقف عن الإنجاب، استمر في الإنجاب، وأضاف أربعة أولاد إلى العائلة، كنت آخرهم في الترتيب. لم أشعر يوماً أن دمشق مدينتي، وطالما شعرت بجدار يفصلني عنها. كان حسد أصدقائي السوريين يهون علىّ غريبي، فأعرف أنهم غرباء في بلدتهم أكثر مني. كانت ذروة الحسد، في الأيام الكابوسية لاستفتاءات الرئاسة، حيث يقاد الجميع كقطيع لإعلان الإذعان للرجل الأول الذي امتهن إذلال البلد بكل الطرق التي يمكن عقلاً مريضاً أن يخترعها. أما في مسيرات التأييد للرجل «المعجزة» فكنا جزءاً من القطيع.

بعيداً من السياسة، كان أصدقائي السوريون يشفقون علىّ بوصفي الغريب الدائم في بلد يدعى أنه يُعيّني غريباً من أجل مصلحتي الشخصية والوطنية، حفاظاً على حقي بالعودة إلى بلدي التي يعرف أنها مستحيلة، لكنها تصلح كشعار لتوجل في سحق البلد وإخراسه.

«إذا خربت حياتك في هذه الزاوية من العالم... فأينما حلت ستكون خراباً»... منذ غادرت دمشق قبل خمس سنوات وكلمات الشاعر اليوناني قسطنطين كافافي تدق في رأسي طوال الوقت. نعم، لقد كانت حياتي خربة من قبل أن أولد. لم أعرف الطبيعي حتى أقيس عليه: كيف يعيش الإنسان العادي وال الطبيعي في وطنه في ظل شروط عادلة وطبيعية؟ هذا ترف لم أعرفه. كنت واهماً عندما اعتقدت أن الآخرين (السوريين) يعرفون ما هو العادي وال الطبيعي. كان الطبيعي في ظل حكم البعث، أن يكون الاستثناء هو القاعدة، وكانت غربة السوريين في وطنهم أقسى من غريبي فيه. أنا والسوسي الذي يجايلني، ممن ولدنا بعد حكم البعث وإعلان حالة الطوارئ والأحكام العرفية في آذار (مارس) 1963، لم نعرف الطبيعي ولا العادي، عشنا حياتنا كلها في ظل الاستثنائي، لدرجة لم يعد أحد يذكر ما كان عليه البلد قبل البعث، وقبل الأسد الأب. لا تاريخ لسوريا قبله، يبدأ التاريخ وينتهي بالعائلة بعد توريث الأبن. وحد القمع الجميع في سوريا، « مواطنين » وغرباء. لم ينزل

السوريون والفلسطينيون وحدهم حصلتهم من القمع، فقد وسع ووزع النظام قمعه وشملآلاف اللبنانيين والكثير من العراقيين والأردنيين وغيرهم أيضاً.

في كل مكان في سوريا لم يك أحد ينجو من مسألة المخابرات، وزج مئاتآلاف المعتقلين في السجون زمن الأسد الأب، ومجازرة بشعة في مدينة حماة العام 1982، نجح الأسد الأب من خلالها في إخراج البلد وتعيم الخوف على الجميع. أي وطن هذا الذي أولد فيه خائف؟! ما معنى أن أكون سورياً في زمن البعث والأسد، سوى أن أكون خائفاً من كل شيء؟! أفكر أحياناً، كم من العائلات ستهدم، إضافة لتلك التي هدمتها وحشية الأسد الابن، إذا سقط النظام وفتحت ملفات المخابرات للعموم؟! كم من الأبناء والآباء والزوجات والأزواج والإخوة، الذين أجبرهم النظام على كتابة تقارير بعضهم عن بعض ستدمر مكانتهم عند بعضهم؟! ستبقى آثار النظام المدمرة فعالة حتى في حال سقوطه، الخيال الإجرامي في أوسع حدوده. هذه الـ«سورية» التي عرفناها وخبرناها، شوهتنا وشوهدت كل السوريين، وتحولتنا إلى معطوبين ومخصوصين. هناك الكثير الذي دمر في سوريا قبل سقوط البراميل المتفجرة التي أرسلها الأسد الابن لتسقط على رؤوس السوريين في المدن والقرى السورية، متمماً مهمة والده. هذه الـ«سورية» لا يضربني الحنين إليها على الإطلاق، ذكرها تشعرني بالخوف. ولا أحزن إلى التاريخ التافه للبلد ولا إلى عمارة البلد القبيحة. أحزن إلى الأصدقاء الذين هناك كانوا أجمل ما في تجربتي السورية، واليوم تكاد سوريا تفرغ منهم تماماً، فهم ينقصون كل يوم، وتزداد سماء دمشق ظلمة.

الحياة

المصادر: